

النسق القيمي الفلسطيني

**Palestinian Value System**

حسن البرميل

**Hassan Albarmil**

قسم علم الاجتماع، جامعة القدس المفتوحة، منطقة بيت لحم التعليمية، فلسطين

بريد الكتروني: hbarmil@qou.edu

تاريخ التسليم: (2013/5/7)، تاريخ القبول: (2013/12/23)

**ملخص**

تناولت هذه الدراسة تمهيدا نظريا حول مفهوم النسق القيمي وإيجاز وظائفه في أدبيات علم الاجتماع ورواد النظرية الاجتماعية. وحاول الباحث أن يلائم الأطروحة النظرية لمقولة النسق مع مجريات الواقع القيمي الفلسطيني من خلال ثلاثة مشاهد وهي المشهد الاجتماعي والسياسي والثقافي.

**Abstract**

This study has dealt with a theoretical prelude to the concept of value system. The researcher has attempted to summarize the functions of this system within the literature on sociology and pioneers of the sociological theory. In addition the researcher has also attempted to bring the theoretical thesis of the system category into harmony with the developments of the Palestinian value reality through three scenes – the social, political and cultural.

**مقدمة**

يعتبر النسق القيمي من المفاهيم التي استحوذت على أدبيات علماء الاجتماع، وكان لها نصيب وافر في صياغة الأطر النظرية التي قدمها هؤلاء العلماء ضمن رؤية تراوحت بين الأيدولوجيا الوظيفية ممثلة بعالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز، والأيدولوجيا الصراعية ممثلة برواد الفكر الماركسي، ويعتبر مفهوم النسق قاسما مشتركا بين المدرستين السابقتين مع الاختلاف في رؤية كل منهما نحو التغيير الاجتماعي الذي يتضمنه هذا النسق. فالوظيفيون

يركزون على عوامل التكامل والاجماع والتوافق كأساس للعلاقات الاجتماعية، أما الصراع فيركزون وينطلقون من تناقض مصالح الجماعات المختلفة التي تؤدي الى عمليات الصراع والتغير، وفي سياق هذا الطرح لا بد من توضيح نظري للبناء الاجتماعي ومدى ارتباطه بالنسق الثقافي، مبينا في ثنايا هذا الطرح تحليلا لوظائف النسق القيمي وفق رؤية افتراضية استمدت حيثياتها من الواقع الذي يمتاز بخاصية انتقالية تسعى جاهدة الى الوصول الى حالة متزنة في ظل تراكمات قيمية متحركة. ولتحقيق ذلك لا بد من الولوج الى النماذج النظرية البنائية، فلهذا النوع من البناءات النظرية تاريخ طويل في العلوم الاجتماعية، وقد قامت على أساس ما يعتقد علماء الاجتماع أنه المشكلة الأساسية وهي محاولة تفسير النظام الاجتماعي، أي محاولة الإجابة عن أسئلة منها: لماذا تقوم المجتمعات والأنساق الاجتماعية؟ لماذا وكيف تستمر؟ وما الذي يؤدي إلى تبدلها وتغيرها؟ وللوقوف عند هذه الأسئلة ظهر هناك توجهان أساسيان، الأول يقوم على فكرة التوازن والإجماع والثاني على فكرة تضاد المصالح والصراع، وتعتبر البنائية الوظيفية ممثلة للاتجاه الأول، بينما تمثل الماركسية الاتجاه الثاني، وكما أسلفت في بداية المقدمة فإن الفكرة الأساسية والمشاركة بين المدرستين هي النظر إلى المجتمع على أنه نسق اجتماعي يتكون من أجزاء بينهما علاقات تبادلية، أي كل جزء من هذا النسق يمكن أن يؤثر ويتأثر بالأجزاء الأخرى. وفيما يلي نعرض نقاشا للنظريتين اللتين حازتا على قدر كبير واهتمام بالغ في الأطر السوسبيولوجية التي تطرقت للبناء الاجتماعي.

### النظرية الوظيفية

كثيرا ما يطلق عليها اسم النظرية البنائية الوظيفية، تكاد تسيطر على الفكر التفسيري لعلم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى على مدى الثمانين عاما السابقة (عيوش، 2008، 165) وقد قام الاتجاه الوظيفي في البداية على أساس الافتراض القائل بأنه يمكن تفسير النظم والممارسات والعمليات الاجتماعية من خلال الوظيفة أو الوظائف التي تؤديها للنسق الاجتماعي، علما إن هذه الوظائف تعتبر ضرورية لبقاء المجتمع أو الجماعة أو البناء الاجتماعي / بمعنى آخر ما يقوم به ذلك النظام من وظائف للمؤسسات الاجتماعية، فنسأل هنا ما سبب قيام هذا النظام أو هذه المؤسسة؟ ولماذا تستمر؟ وهكذا نعلل قيامها واستمرارها بأنها تؤدي وظيفة ضرورية لبقاء واستمرار النسق الكلي، مثال ذلك أن نحاول تفسير النظام الأسري واستمراره وذلك من خلال بيان وظائف الأسرة في المجتمع. إن مثل هذا المدخل يقوم أصلا على محاولة قياس النسق الاجتماعي بالكائن الحي، وإجمالا يمكن أن نلاحظ أن أدبيات هذا الاتجاه تنطوي بصورة ضمنية على ثلاثة أفكار هي على النحو الآتي:

1. قياس (تشبيه) المجتمع وأجزائه بالكائن الحي وأجزائه.
2. النظر إلى المجتمع على أنه نسق اجتماعي يتكون من أجزاء متداخلة مترابطة بشكل يؤدي إلى وجود المجتمع في حالة توازن ونظام واستقرار.

3. التركيز على العوامل التي تؤدي إلى حالة النظام والتوازن والاستقرار والتكامل (عثمان، 2010، 15).

إضافة إلى ذلك أصبح الباحث يهتم بعلاقات الأجزاء وتكويناتها علاوة على اهتمامه بوظائفها، وعلاقة البناء بالوظيفة، وإذا كان التوجه الوظيفي الأول يؤكد على الضرورات اللازمة لمصلحة المجتمع، ويركز على البناءات الاجتماعية كحقائق قائمة بذاتها وسابقة للفرد ووجوده، فإن أصحاب الاتجاه البنائي الوظيفي (وخاصة المتأثرين بفيبر وبارسونز) يقيمون نظرياتهم على أساس البدء بالفرد والفعل، فالإنسان هنا فرد مستقل، قادر على تحقيق إمكاناته وإقامة نظام اجتماعي-إنساني خال من الضوابط والمعيقات. والمجتمع هنا يصبح نتيجة لجهود الأعضاء وما صنعوه، وما أقاموا من معان وأفعال وعلاقات، فهو إذن يتألف من أفراد متفاعلين، هذا بينما كان ينظر إليه كما هو الحال عند دوركايم كحقيقة قائمة مستقلة عن الأفراد فالفرد يولد في مجتمع موجود ويصاغ بما هو موجود اجتماعيا وثقافيا (عثمان، 2010، 16).

### نظرية الصراع

تقوم نظرية الصراع على الفكرة القائلة أن الصراع هو أساس تكون التنظيمات الاجتماعية كلها، وبصورة عامة يمكن تقسيم نظرية الصراع الحديثة إلى نموذجين النموذج التصنيفي أو النظامي الذي يؤكد على العوامل الاجتماعية التي تحدد عملية الصراع والنموذج الطبيعي الذي يركز على السياق غير الاجتماعي أو الديموغرافي للصراع، وفي هذا السياق يمثل (رالف دارندورف) النموذج الأول في حين يمثل (ديفيد ريزمان) في تأكيده على العوامل الديموغرافية، و(لويس كوزر) باعتداده على آراء جورج زيمل في المماثلة العضوية النموذج الثاني.

ويعتبر (ماركس) رائد نظرية الصراع، الذي أخذ فكرة التاريخ القائمة على العلاقة بين المتناقضات (الجدلية) واستخدمها في تفسير التاريخ الاجتماعي للإنسان، لكن ماركس على نقبض هيجل استخدم العامل الاقتصادي المادي كأساس لعملية التغيير الاجتماعي، فالتغيير التاريخي يقوم أساسا على التحول في نظام الإنتاج والملكية، وتصيح الأفكار ومستوى الوعي نتيجة لتطور الأحوال والظروف المادية وهكذا أصبح التاريخ عملية نمو وتطور قدرة الإنسان على التحكم في البيئة الطبيعية، أي قدرة الإنسان على إنتاج ما يحتاج إليه، وتتطور الحضارة تبعا لنجاح الإنسان في ذلك، أي أن تطور المجتمع الإنساني يرتبط أساسا بالعمل على تحويل الطبيعة من أجل سد حاجات الإنسانية. بناء على ذلك ميز ماركس بين مستويين في البناء الاجتماعي الأول المستوى الأساسي (البناء التحتي) ويتكون من علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج أي العلاقة بين مالكي وسائل الإنتاج والعاملين عليها، والثاني المستوى الفوقي ويتكون من المفاهيم السياسية والتعليمية والأخلاقية... إلخ، ويعتقد ماركس أن البنية التحتية هي التي تشكل وتحدد إلى حد كبير المستوى الفوقي، كما يؤمن بأن المستوى الفوقي يعمل على توفير إمكانية وظروف الإنتاج ويؤثر بالبنية التحتية بدوره. إن التناقض الأساسي في رأي الماركسية هو ما يحدث لقاء التطور المتفاوت بين قوى الإنتاج من جهة وعلاقاته من جهة أخرى، ويظهر هذا في تناقض المصالح بين من يملك وسائل الإنتاج وبين الذين يعملون لديهم، ويؤدي هذا التناقض إلى

خلق الطبقات الاجتماعية المتناقضة المصالح، مما يؤدي على ما أسماه (الصراع الطبقي) وملخص هذه النظرية أن ماركس وانجلز يرون أن تاريخ البشرية عبارة عن تاريخ صراع الطبقات (عبد المعطي، 1981، 13).

نلاحظ أن النماذج البنائية السابقة قد عالجت البناء الاجتماعي من خلال تركيزها على مفهوم النسق الاجتماعي، فما هم مضمونه؟ وما ارتباطاته بالثقافة؟ وكيف أثرت العولمة على القيم والتغير في المجتمع العربي؟ وهذا ما ستستعرضه النصوص الآتية.

يرى بارسونز أن النسق الاجتماعي هو مجموعة من الفاعلين (الأفراد) الذين يتفاعلون مع بعضهم البعض ويحتل كل منهم مركزاً أو مكانة اجتماعية متميزة عن الأخرى، ويؤدي دوراً متميزاً، فهو عبارة عن نمط منظم يحكم العلاقات بين الأفراد وينظم حقوقهم وواجباتهم تجاه بعضهم البعض، كما أنه يعتبر إطاراً من المعايير أو القيم المشتركة، بالإضافة إلى أنه يشتمل على أنماط مختلفة من الرموز والموضوعات الثقافية المختلفة (parsons, 1953; 357) نلاحظ أن بارسونز اعتبر النسق الاجتماعي أولاً وقبل كل شيء شبكة من العلاقات بين الناس وبين الجماعات، إنه يجمع مجموعة من الفاعلين في رابطة واحدة، وبعبارة أخرى فإن أفعال الفاعلين داخل النسق الاجتماعي ينظر إليها بالتحديد من خلال تفاعلها مع أفعال آخرين ومن خلال ربطه بالنسق الثقافي. يعتقد بارسونز أن النسق الثقافي يزود النسق الاجتماعي بما أسماه باكتساب الشرعية، فمن خلال النسق الثقافي يستمد النسق الاجتماعي القيم والمعايير التي تساعد على إيجاد التضامن والولاء وال ضبط، وأيضاً فإن النسق الثقافي يعطي للقيم دوراً رئيساً في تحديد الحياة الاجتماعية والتنظيم الاجتماعي (جي روشيه، 1981، 97) ونلاحظ أن القيم عنصر مهم من عناصر الثقافة فهي مبدأ مجرد وعمام يشعر الأفراد نحوه بالارتباط الانفعالي القوي كما أنه يوفر لهم مستوى للحكم على الانفعال القوي والأهداف الخاصة، ولذلك فإن القيم تضع التعبير الواضح والملموس لمجموعة المستويات العامة للسلوك التي تكون المعايير الاجتماعية (الحسن، 1990، 431).

وبذلك يمكن تعريف النسق القيمي على أنه نموذج منظم للقيم في مجتمع ما أو جماعة ما، وتتميز القيم الفردية فيه بالارتباط المتبادل التي تجعلها تدعم بعضها البعض وتكون كلا متكاملًا، وهذا يجعل النسق القيمي إطاراً لتحليل المعايير والمثل والمعتقدات والسلوك الاجتماعي، وهناك بعد آخر للنسق القيمي وهو الحاجة إلى إشباع الحاجات والذي يهيمن على المجتمع (ناصر، الحضارية، [www.alhadariya.net](http://www.alhadariya.net)).

أما من حيث وظائفه فإنه يؤدي مجموعة من الوظائف لعل أهمها:

1. ربط مكونات الثقافة في مجتمع ما بعضها ببعض الآخر، إذ يربط العناصر المتعددة والنظم حتى تبدو متناسقة، كما أنه يعمل على إعطاء هذه النظم أساساً عقلياً يستقر في ذهن أعضاء المجتمع المنتمين إلى هذه الثقافة أو تلك.

2. إفساح المجال أمامه لتطوير توقعاته المستقرة عن سلوك الآخرين وتمكين الأفراد الآخرين من أداء الالتزامات المختلفة الخاصة بأدوارهم.
3. كبح سلوك الفرد لمنع تجاوز حدود معينة تهدد الكيان الاجتماعي الأكبر أي تمارس دورا كبيرا لتحقيق الضبط الاجتماعي.
4. للقيم ارتباط ذهني وعاطفي بشخصية الإنسان إذ أن الشخصية في نظامها وتركيبها تتكون في سنوات الطفولة المبكرة حيث أن القيم تنتشر بنفسية الفرد مع مرور الزمن عن طريق التنشئة الاجتماعية، فتتحول إلى اتجاهات ومواقف فكرية وانفعالية خاصة بالفرد (زاهر، 1984: 32).

من خلال استقراء البعد النظري لمفهوم النسق الاجتماعي يمكن ان نخرج بدلالات عدة يرتبط جلها بالثقافة التي تعتبر عنوانا للمجتمع ووحدة تحليلية له، ومن خلالها يمكن أن نقف على المشهد الإنساني ذو العلاقات المركبة والتي تفرز مخرجات عرضة للتأويل على طرفي معادلة لا يتوازى الفعل فيها إلا في سياقاته الواقعية المرتبطة بالحدود الزمانية والمكانية وما تتضمنه هذه المفاعيل والتأثيرات المتباينة لذلك. وعليه إذا نظرنا إلى النسق الثقافي من خلال الأشخاص وترتيباتهم التنظيمية وتجمعاتهم والعلاقات بينهم والمراكز التي يحتلونها في سلم التراتب فإننا ندرس الثقافة من خلال مبدعيها وحاملها وممثليها، أي النظام الاجتماعي، وإذا نظرنا إلى الثقافة من خلال الأدوار فإننا نتحدث عن الثقافة من خلال بنائها والعلاقة بين المجتمع وثقافته. إن النسق الثقافي ككل بجميع عناصره هو نسيج يوصلنا إلى مستويات النسق العام (عاطف، 1981، 30).

ولا شك أن مواكبة عناصر النسق الثقافي للحراك الزماني وما ارتبط به من تغيرات على مختلف الأصعدة، وقد جعله يتأرجح بين القبول والرفض لمستويات قيمية اعتراها الكثير من التشويه، فهي العولمة كظاهرة عالمية قد أثرت في مجمل الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية قد أفرزت قيما عرضة للتأويل بين ما هو صائب وخاطئ، وسوي وغير سوي. فالعولمة الثقافية بدأت في عقد التسعينيات من القرن العشرين، وما تزال تمر بمرحلة التأسيس، فهي من الناحية الثقافية تشير إلى انتقال تركيز الإنسان واهتمامه من المحلية إلى العالمية، بمعنى أن يزداد الوعي بعالمية العالم ووحدة البشرية، وبروز مفاهيم عالمية جديدة للهوية والمواطنة قد تحل محل المفاهيم المحلية لها، إلا أن التحول الثقافي لا يعني تهميش الهوية الوطنية للفرد، بل يرى بعض الباحثين أنها تزداد رسوخا وقوة في ظل العولمة الثقافية، (زايد، 2000، 60) وحينما ندرس العلاقة بين العولمة والثقافة، نلاحظ أن التحول المتسارع نحو العولمة سيؤدي إلى الارتداد نحو التشبث بالثقافة، وأن هذا الارتداد إما أن يكون سلبيا أو إيجابيا يحاول التسلح بأدوات ثقافة العولمة مع الحرص على عدم الاستهانة بثقافة الآخر، ويذهب علماء الاجتماع إلى تأكيد حقيقة أن العولمة ليست مرحلة تالية بعد المحلية التي قد يلغي وجودها، بل إن العالمية والمحلية خاصيتان متلازمتان في الحدوث، وأنهما حالتان تنطويان على عمليتين رئيسيتين هما: 1. غرس قيم معينة في المجتمع. 2. تراجع قيم معينة كانت سائدة في المجتمع وفق درجة حدائته

وتطوره، وليس بالضرورة أن يحدث الاختراق الثقافي لمجتمع ما تغيرا في قيم أفراده واتجاهاتهم، وأن هذا التغير في منظومة القيم التي تمثل الجانب المعنوي والأخلاقي يواجه تحديات يصعب تقدير حجمها في الوقت الراهن من الجانب المادي كثقافة العولمة، وحاليا فإن العولمة تمر بمرحلة العولمة المالية التي تصاحبها قيم الاستهلاك والتسلية، ورؤية الإنسان على أنه مستهلك مادي قد تقوده إلى الانطواء أو الانسحاب أو التطرف في أسلوب المقاومة وعلى مستوى المجتمع. (زايد، 2000، 278).

وعلى هذا النحو سنتناقش هذه الدراسة النسق القيمي في البناء الاجتماعي الفلسطيني من خلال رؤية تمتاز بالشفافية والموضوعية من ناحية، والتحليل والنقد من ناحية ثانية.

والباحث في هذه الدراسة لا يسعى ولا يهدف أن يقدم صورة نمطية مغلقة للمشهد القيمي الفلسطيني بقدر ما يأمل أن يستشرف الحقيقة بواقعها وحالتها الراهنة، لعلها تكون تحديا أمام كل أسرة ومؤسسة رسمية أو غير رسمية في إعادة صياغة وبناء إطار قيمي فلسطيني مشرق، نعزز فيه القيم الفاضلة ونستأصل السيئ منها.

وحتى نكون على بينة من أمرنا فقد ارتأى الباحث أن يسلم الضوء على واقع القيم في المجتمع الفلسطيني من خلال ثلاثة مشاهد هي على النحو الآتي:

#### أولاً: المشهد الاجتماعي

لا شك أن عملية التنشئة الاجتماعية داخل الأسرة تعتبر الأداة الأولى في إكساب الفرد قيم مجتمعه. ولأن العائلة هي نواة التنظيم الاجتماعي والاقتصادي في المجتمع العربي، فإنها تعتبر المصدر الأهم للقيم السائدة بالإضافة إلى أنماط المعيشة، لذلك نجد أنه إذا ما تعارضت أية قيم مهما كان مصدرها مع القيم العائلية تكون الأولوية في واقع الحال للقيم العائلية التي هي في واقع الحال أكثر تأثيرا في السلوك من أية اتجاهات قيمية أخرى. ولكون العائلة وحدة إنتاجية نجد أن أهم القيم التي ينشأ عليها العربي تلك التي تشدد على العضوية والعصبية والتعاون والامتثال والالتزام المتبادل بين أعضائها. (بركات، 2000، 641).

ولأن مجتمعنا الفلسطيني قائم بالدرجة الأولى على البنية التقليدية التي تتسم بالمحافظة على القيم والتقاليد الموروثة، حيث تعطى أهمية كبرى واحتراما على صعيد الممارسة، لذا تقوم الأسرة بوصفها مؤسسة التنشئة الاجتماعية الأولى وتحديد السلطة الأبوية فيها بفرض هذه القيم على أبنائها بشكل يتراوح بين الترغيب أحيانا والترهيب أحيانا أخرى، بغض النظر عن احتياجات ومصالح هؤلاء الأبناء ورغبتهم في التجديد والتغيير ورفض ما هو تقليدي، مما يزيد من إحساس هؤلاء بالاغتراب والوقوع في دائرة صراع الأجيال التي تستهلك من طاقاتهم الإبداعية، ومن ثم فإنهم يضطرون إلى انتهاج سياسة اللامبالاة والانغلاق على الذات وعزلها في كثير من الأحيان عن المشاركة الاجتماعية. وهنا يكمن الخوف من أن ينتهي الأمر بهؤلاء الأبناء إلى الشعور بانعدام الانتماء إلى مجتمع لا يعبر عنهم ولا يلبي الحد الأدنى من احتياجاتهم النفسية

والاجتماعية والاقتصادية في ظل فوضى ثقافية خالية من آليات الحماية والتحصين والتمكين. (حسين، 2004، 1).

وعلاوة على ذلك فإن العائلة تقوم بتجسيد النظام الاجتماعي الأكبر ودعمه والذي يتأرجح بين التقليد وبين حداثة مجهضة بسبب عوامل عديدة أبرزها الاحتلال الاستيطاني، ويتم التعبير عن هذه الأرجحة من زاوية القيم والمعايير بالتشديد على قيم العضوية والانصهار في الجماعة أكثر مما يتم التشديد على قيم الاستقلال الفردي. وهنا ينمو الميل نحو الاتكالية على حساب الاعتماد على الذات والتمسك بحق الاختيار، ويتكسر الامتثال القسري والتمسك بقيم الطاعة ويحتدم الصراع بين قيم الماضي وبين القيم المستقبلية، وكذلك بين قيم الاتباع وبين قيم الإبداع (المحافظة مقابل التجديد)، وبين قيم العقل وقيم الضمير، بين قيم احترام السلطة وقيم التمرد عليها، وقيم التركيز على الحفظ والتلقين مقابل الفهم والتحليل. (محيسن، 2007، 5) ونحن في هذا السياق لا نجتزئ الحاضر عن الماضي، ولا نخفي دور الأسرة الإيجابي في الجانب الآخر، إذ أن العائلة والانتماءات الأخرى شكلت وسائل حماية وتكافل وتنشئة لنقل الثقافة والتراث في أصعب الظروف، فدفعت بأبنائها إلى التعليم وشجعت على الانخراط في الكفاح الوطني ومثل لها مصدر افتخار واعتزاز، حيث ساهمت بعض الأعراف والتقاليد العائلية في سد الفراغ الناجم عن غياب القانون الفلسطيني. إلا أن هذا الوضع لم يبق على حاله، فمع نشوء السلطة، تولدت عناصر دخيلة في النسق الاجتماعي الفلسطيني أعاققت عملية الاندماج الوطني والسياسي، وحرصت على توليد نزاعات وولاءات عضوية على حساب الولاء الوطني، فالعائلة التي تقوم على التراحم والود تحولت إلى شكل من أشكال الهوية وتعريف الأنا والآخر من خلالها، وبالتالي تعميق نزعة الصراع والعنف والشقاق. وبالرغم من الطابع السلبي والضار للنزعة العائلية المتنامية، لم تسلم العائلة من محاولات التقويض والتدمير وذلك لعدة اعتبارات أولها، بوصفها أحد أهم ضمانات الوحدة الاجتماعية المتنامية بمعناها الوجداني والنفسي، وثانيها، أنها تمتلك منظومة أعراف تمكنها من ضبط العلاقات والسيطرة على المنازعات وحلها، وثالثها لكونها الشكل الأكثر انسجاماً مع الطبيعة الأساسية للمجتمع مجهض الحداثة ضعيف التمايز على أسس اجتماعية متباينة. وبدأت محاولات التقويض حين أعطيت العائلة دوراً أكبر من حجمها، وحين استغلت في حشد المؤيدين والتابعين، وتواصلت هذه المحاولات لتنشيط عوامل التفرقة والخلاف بين العائلات، وإبراز قيادات ووجهاء من بين أفرادها دون كفاية مهنية، ويتعظيم دور هؤلاء الوجهاء في مجمل القضايا العامة دون وجه حق. وكانت المحاولة الأكثر خطورة هي جر العائلة إلى أتون الصراع على السلطة، حتى باتت عائلات بكاملها تحسب على هذا التنظيم أو ذلك مع ما يصاحب هذا الأمر من إضعاف المرجعيات العائلية الناظمة وتفتيت منظومة قيمها (محيسن، 2007، 6).

نخلص من الطرح السابق أن النسق القيمي في البناء الاجتماعي الفلسطيني يرتبط ارتباطاً عضوياً بالنسب العائلي وبميكانيزمات التنشئة الاجتماعية وآلياتها التي تضطلع بها الأسرة الفلسطينية، ولا يفوتنا في هذا المقام أن نبرز قيماً اجتماعية شكلت الإطار العام للنسق الاجتماعي

الفلسطيني تأخذ في سياقها دلالات ايجابية تارة ودلالات سلبية تارة اخرى، ومن هذه القيم النزعة القدرية.

فالقيم القدرية يتسم بها المجتمع الفلسطيني شأنه شأن المجتمع العربي، فكثيرا ما يقال أن العربي قدرى يؤمن بأن مصيره مكتوب وأن الأمور تحدث له ولجماعته ومجمعه بمشيئة الله عز وجل وليس بمشيئته هو (بركات، 2000). وهذا لا يعني لهذا الامتثال والإذعان نفي وجود الحرية والاختيار للإنسان، فالآيات القرآنية الكريمة تدل على ذلك بوضوح في قول الحق عز وجل (إنا كل شيء خلقناه بقدر) (سورة القمر الآية 49) وقوله جل شأنه (الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى) سورة الأعلى الآيتين 2، 3. وفي موضع آخر سورة التوبة (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) الآية 51، ونرى نزعة الاختيار في قوله سبحانه (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وفي سورة الرعد (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) الآية 11، ويقدم حليم بركات تحليلا وتفسيرا اجتماعيا للقدرية بقوله (نعتبر القدرية أداة يستعملها الإنسان في تعامله مع الواقع والتحديات أو المشكلات التي يواجهها، ويتبين لنا أنها أداة اجتماعية نفسية عندما نحلل الأفكار القدرية في محتواها الاجتماعي والمناسبات التي تقال فيها، وفي هذا الإطار نذكر المستشرقين وغيرهم ممن يؤكدون على سيادة النزعة القدرية في الثقافة العربية، أن الإسلام غير خريطة التاريخ البشري وأعاد تكوين العالم) (بركات، 1985، 336)، نخلص من هذا السياق أن الإيمان بالقدر خيره وشره مسألة عقيدية يؤمن بها الفلسطيني، وهذه النزعة القدرية لا تعني التواكل بل تحمل في طياتها العمل والمثابرة والتغيير وفي هذا يقول الكواكبي (إن القضاء والقدر هما السعي والعمل) (الكواكبي، 1975، 68).

#### ثانيا: المشهد السياسي

كما أسلفنا في المشهد الاجتماعي فإن عملية تشكل القيم الاجتماعية بشكل عام ترتبط بآلية التنشئة الاجتماعية وفقا للمعارف الاجتماعية وضوابط السلوك الاجتماعي، والتي تحدد الخبرات السلوكية للأفراد والجماعات بشكل مرغوب فيه ومرغوب عنه، ويتعزز الالتزام بهذه القيم بتزايد الإيمان بها من ناحية، أو بتزايد الضغوط الاجتماعية الدافعة باتجاه تبنيها، وفي الظرف الاجتماعي الفلسطيني تتعدد المحددات الاجتماعية للقيم تبعا لظروفها الجديدة. وإذا كانت اللامعيارية (حالة الأنومي الدوركايمية) هي التي حكمت الجماعات الفلسطينية بعيد النكبة، فإن بناء منظمة التحرير الفلسطينية بالبنى المفاهيمية هي التي أنتجت التوافق الفلسطيني الذي أسس لقيم فلسطينية مستندة الى مبدأي الحق والواجب، لذلك فقد شكل النسق السياسي المتشكل مع منظمة التحرير الفلسطينية المنتج الاجتماعي لهذه القيم لدى الجماعات الفلسطينية كافة على طول امتدادها الأفقي. (بيطار، 2011، 4).

وإذا ما اتفقنا على مقولة عمليات الصراع والحروب والأزمات، فإن الحالة الفلسطينية هي جزء من هذه العملية، بل وترتبط بهذه المقولة ضمنا وإطارا. ففي سياق المناخ العام من الصراع العربي الاسرائيلي تتأثر القضية الفلسطينية تتأثر بالإطار والمناخ العام الدولي والعربي والإطار



المحيط بحالة المجتمع الفلسطيني، فقد ساهمت الصراعات والحروب المريرة الفلسطينية الإسرائيلية إلى حد كبير في ولادة قيم النضال والمقاومة طوال العقود الماضية، إلا أن ما تجلت خطورته خلال الأعوام الست الماضية هو تحول الصراع وتركزه في صراع واقتتال داخلي، مما دعا إلى خلق تنافر وجداني ومعرفي خطير على وجدان الإنسان الفلسطيني، وجعله عرضة للإصابة بإحباطات وأزمات نفسية جديدة متراكمة ليزداد حجم المعاناة التي يعانها. (حسين، 2007، 1).

إن حالة الانقسام داخل البناء الاجتماعي الفلسطيني قد ألفت بظلالها على جملة من العلاقات الاجتماعية المشكلة لهذا البناء، بل وأثرت في قيمه بمستوياته المتعددة. فالزواج، كعلاقة سامية بين الرجل والمرأة أقرها الحق عز وجل وحث عليها سيد المرسلين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، ذو قيمة عالية في توثيق أواصر المجتمع وترابطه وبث الطمأنينة والمودة بين أعضائه. إلا أن هذه القيمة انحرفت عن مسارها في ظل تناحر الأخوة في المجتمع الفلسطيني. ولعل المشهد الآتي يعكس صورة سلبية لما آل إليه الحال في هذا السياق:

((أم خالد سيدة فلسطينية تقطن غزة هاشم، لها من العمر سبع وأربعون عاماً، لها كنة من بين الأخريات مكانة عزيزة على قلبها (وفاء)، والأخيرة فتاة طيبة وجميلة، لا تختلف بجمالها عن بنات السيدة أم خالد، أخيراً قررت أم خالد أن تزوج أحد أبنائها، فتوجهن لخطبة إحدى الفتيات، وعندما اقتربن من المكان، أول ما تبادر إلى ذهن أم خالد، ترى هل ينتمون إلى حماس مثلنا، والله خيفة يكونوا من فتح. .. دهشت وفاء من حماتها، وقالت لها: طيب شو دخل حماس وفتح في الزواج يا مرات عمي. .... بكل طيبة وبراعة، هو إحنا رايعين نجوز الولد ولا رايعين انتخابات؟ كنت بأعرف أنه يسأل الواحد عن حسبها ونسبها وجمالها وتربيتها وأخلاقها مش عن حزب سياسي. .. الحماة صاحبة رؤية خاصة بنظام وقيم اجتماعية يعاني من تبدل المفاهيم والقيم في ظل هذا الصراع. .. أم خالد كانت تخشى أن تؤدي كل مساعيها وجهدها إلى نهاية غير سعيدة أو توبيخ من زوجها بأثر سلطة الزوج صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في البيت، ولربما توبيخه لها بمجرد التفكير بالذهاب إلى بيوت فتاوية لخطبة عروس لابنه، أو تخشى أن تدب خلافات مستقبلية بين الأسرتين، ولربما تؤدي الخلافات في النقاش بين الزوج وزوجته أو الحماة أو كبتها ولربما كل مكونات الأسرتين تخشى من عواقب هذا الكم الهائل من المخاوف. ... فهي تريد زواج هادئ مش خناقة على الطراز الدموي الذي حصل في غزة قبل عدة أعوام.)) (حسين، 2007، 1).

نلاحظ في سياق المشهد السابق أن العلاقات الأسرية قد تأثرت من ناحية اختيار الزوجات، فأصبح الانتماء السياسي ذا تأثير واضح في اختيار الزوجات والأزواج، بحيث أصبح هناك صعوبة في التكيف والتوافق في الحياة الزوجية نتيجة انتماء الرجل الراغب بالزواج أو الفتاة الراغبة في الزواج. ومن خلال عملية استقرائية واضحة نحو التفاعلات السياسية داخل النسق الاجتماعي الفلسطيني وتأثيرات أزمة الانقسام عليه، يمكن الخروج برؤية تحليلية سوسيولوجية على النحو الآتي:

- تصدع العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة بدرجات متفاوتة، حيث برز التشدد للحزب أو التنظيم على حساب التبعية للعائلة أو الحمولة، واعتبار الحزب أو الحركة مرجعية للفرد.
- تراجع دور أفراد الأسرة خصوصاً في دور الأب الضابط والموجه للأبناء.
- ضعف روح المودة والمحبة بين أفراد الأسرة الواحدة نظراً للتشدد والتعصب للحزب أو التنظيم على حساب العائلة.
- ضعف التحوار البناء بين الأسر، وبرز ظاهرة القطيعة الاجتماعية بسبب التشدد للتنظيم السياسي على حساب العلاقات الاجتماعية (العزلة الاجتماعية).
- تعزيز ثقافة وفكرة قبول تبني مصلحة الحزب على حساب مصلحة الأسرة بحيث أصبح دور الأسرة هامشياً في عمليات الضبط الاجتماعي.
- ضعف عمليات التكافل والترابط الاجتماعي بين الأسر الفلسطينية. (وكالة الشباب الاخبارية، 2012، 1).

### ثالثاً: المشهد الثقافي

المجتمع الفلسطيني مجتمع تعبيرى شأنه شأن المجتمع العربي، بمعنى أنه عبر بعفوية فائقة عن مكنوناته الداخلية ورؤيته للعالم بالأدب والرسم والمسرح وغير ذلك من عناصر، (بركات، 1985، 359).

ويتجلى النسق القيمي في بنيته الثقافية التي شكلت الملامح الرئيسية لهويته وذاته، واستطاع الفاعلون فيه صياغة إطار استوعب مراحل التهديد والإنهاء ليعيد لهذا النسق قوته وجلدته، ويشكل من جهة أخرى ضميراً جمعياً احتكم كل فلسطيني من خلاله على ثوابته التي أكدها وحافظ عليها من الهلاك والضياع. وبذلك نلاحظ الامتثال والإذعان لمكونات هذا الضمير عبر صيرورة الحركة في الأدب وفنياته المختلفة التي قولبت في جعلتها نسقاً قيمياً ذو أبعاد تجلت في الدعوة للحفاظ على الكيانية والدعوة إلى لملمة ما تداعى منه بفعل عوامل داخلية وخارجية شتى، وبذلك استطاع النسق القيمي الثقافي الفلسطيني أن يتسامى على ذاته وواقعه وأن ينتج اتجاهها أدبياً اتسم بالعالمية في ظل فقر الأداة الإعلامية العربية وانعدام الفلسطينية منها، وهذه القوة استمدت من قوة الإبداع في بنيتها ودلالاتها المختلفة، وهذه الدلالات ارتبطت بقوة الحق والتصاق الفلسطيني بأرضه أمام أعتى قوة ضاربة قل مثيلها في المنطقة العربية.

ومن خلال نظرة موجزة على المشهد القيمي الفلسطيني تبرز أمامنا مكونات هذا المشهد على النحو الآتي:

### المثل الشعبي

تُعرّف الأمثال الشعبية على أنها التعبير اللفظي المقتضب والمتداول بغير تبديل أو تغيير في لفظه الحرفي، والأمثال الشعبية تلخص خبرة أو موقفا إنسانيا عاما بهدف الإقناع وتأكيد موقف خاص، وهي وإن كانت لا تتمتع بصفة الجبر والقوة والإلزام المباشر على الأفراد التي تتمتع بها العادة، إلا أن لها الوقع النفسي والمعنوي غير المباشر ما يجعل الأفراد ينصاعون لما تفضي به قوة العادة والعرف والمعتقد الشعبي عن رضا وقناعة، وذلك لأن من أهم وظائفها تنمية الدوافع الذاتية لشخصية الفرد وإعدادها معنويا لتقبل واحترام كل ما تعارف عليه أفراد المجتمع من قيم ومعايير (الجوهري، 1978، 125).

والامثال الشعبية مخزون تراثي تتراكم فيه تجارب الشعوب وخبراتها بكل تنوعاتها وتناقضاتها، مما يجعلها تكشف عن ملامح المجتمع وأسلوب معيشته ومعتقداته ومعايير الأخلاقية، كما أنها تسهم في تكوين وجدان أفراد المجتمع الذين تشرّبوا قيمه السائدة فيه والمتوارثة شفاهة من جيل الى جيل ([www.arab-land.net](http://www.arab-land.net)) (عمارة، 2012).

وتُعد القيم الاجتماعية في الأمثال الشعبية الفلسطينية التعبير الصادق عن الهوية الثقافية للمجتمع الفلسطيني المتجذر في أرضه عبر تاريخه الطويل، ونتاج علاقات اجتماعية حرص الإنسان الفلسطيني على تقبلها وتشرّبها في وجدانه، فأضحت بمثابة ضمير المجتمع الذي يضبط سلوك أفراد ويوجهه الوجهة التي تزيد من تماسك المجتمع ووحدته، وخير معبر عن هذه القيم الاجتماعية هي الأمثال الشعبية الفلسطينية التي احتلت مكانة مرموقة في وجدان أفراد المجتمع، لأنها عبرت عن مشكلاتهم وهمومهم وأفراحهم وأتراحهم وعاداتهم وتقاليدهم، فكانت بمثابة التصوير الصادق والأمين لحياة المجتمع الفلسطيني والمعبر عن خبراته الحياتية التي مر بها (عمارة، 2012).

ونحن في هذا السياق إذ نُشخص دلالات المثل الشعبي الفلسطيني كمكون راسخ في بنية النسق القيمي الفلسطيني وتورطه في صياغة مشهد اجتماعي مفعم بالحيوية والبساطة، لندلّل من خلال هذا المشهد على قوة ومتانة الفعل الفلسطيني باعتباره المكون والشاهد الرئيس على مفردات وتفصيلات عناصره وتأويلاته في عنصري الزمان والمكان أو بتعبير أدق التاريخ والجغرافيا.

وللولوج في ثنايا هذا المشهد نلاحظ القيم الأصيلة التي تدعو الى التكتاف والترابط الأسري من خلال المصاهرة لأبناء الحمولة وهو ما يسمى في علم الاجتماع بالزواج الداخلي، فقد قيل في هذا السياق الكثير من الأمثال الشعبية التي تؤكد على قوة النسق القيمي العائلي، وفي هذا نورد بعضا من الأمثال الآتية:

— خذ بنت عمك بتشيل همك.

— اللي ما يوخذ من ملته يموت بعلته.

- دور مع الدرب لو دارت، وخذ بنت العم ولو بارت.
  - يا ابن العم يا شعري على ظهري.
  - يا ابن العم يا ثوب الحرير لحطك بين جناحي وأطير (الراوي، 2000، 11).
- ولا ننسى في هذا السياق أن هناك أمثالا تضمنها النسق القيمي الفلسطيني حملت دلالات سلبية في بُنية العلاقات الأسرية. فعلى سبيل المثال نلاحظ العلاقة السلبية بين الحماة والكنة، ويمكن ردها إلى الظروف الاقتصادية السيئة التي كان يعيشها المجتمع الفلسطيني في القرن التاسع عشر حيث كانت الأسرة الممتدة هي السائدة، ولذلك كان جميع الأبناء يتزوجون ويقومون في منزل العائلة، ولا يسمح للابن وزوجته أن يقيما في منزل مستقل لحاجة الأسرة الممتدة الكبيرة إلى جميع الأبناء والأحفاد ليعملوا في فلاحه الأرض وزراعتها. لذلك كانت الأم تصدر الأوامر والنواهي إلى الكنة، وكانت هذه الأوامر تكاد تكون ملزمة، وكان العرف الاجتماعي يرفض أن يعترف بحق الكنة في الاستقلالية، ولهذا نشبت الخلافات الحادة بين الحماة والكنة، واستطاعت هذه الخلافات والمشاكل أن تفرض نفسها على الوجدان الشعبي. ونتيجة لذلك شاعت الأمثال الشعبية التي تصور العلاقة السلبية بين الحماة والكنة ونرى ذلك في المثل الآتي:
- تقول الحماة لكنتها: صحيح لا تكسري، ومقسوم لا تأكلي وكلي حتى تشبعي، حينئذ تنأر الكنة من حماتها فتحاربها بنفس السلاح، وتمنع الطعام عن حماتها فتقول خمي وباقي ولا تأكلك حماتي (عمارة، 2012، 5).
- ونظرا لقوة العلاقة بين الأم وأبنائها، تجعلها لا تصدق بأن امرأة أخرى حتى ولو كانت زوجة تحب ابنها لحبها وتحافظ عليه وتراعي مصالحه واحتياجاته، فنجدها تتدخل في شؤون حياته الخاصة وعلاقته بزوجته وقد يصل الأمر إلى خلافات ومشاكل تؤدي إلى الطلاق أحيانا، وفي اعتقادها أنها تعمل لصالحه، ولا بد من التركيز هنا على ظاهرة الغيرة عند المرأة كأساس لتحريك العلاقة البغيضة بين المرأة والحماة التي يمكن أن تكون قد تجاوزت عُمر الكِنَّة بعقد أو عقدين فتحصل فجوة كبيرة بين متطلبات ومتغيرات العقدين، فترى الحماة بأن ما توفر لكنتها لم يتوفر لها وهي بعمرها فتجدها غاضبة وحاسدة لما حظيت به الكنة ولم تحظ به هي.
- ومن الأمثال التي تشكل القيمة السلبية في العلاقة بين الكنة والحماة ما يأتي:
- مكتوب على باب الجنة عمر الحماة ما حبت الكنة.
  - الحماة ما تحب الكنة ولو إنها من حور الجنة. (العواودة، 2000، 38).
- ونجمل في نهاية هذا الطرح مجموعة من الخصائص العامة للمثل الشعبي الفلسطيني إذ يمتاز بالأصالة والواقعية والإيجاز والشفوية.
- ولا شك بأن هذه الخصائص لعبت دورا مهما في صياغة الأطر العامة المشكلة للمثل الشعبي الفلسطيني في وعائه الذي يمتاز بشمولية وخصوصية ذات تركيب بنيوي ارتبط في

وحدة النسق القيمي الفلسطيني وديمومته. بل وشكل في أحيان كثيرة امتثالا وإذعانا لاحتياجات سيكولوجية وسوسولوجية عبر الزمان والمكان للفعل والفاعل والموقف والتأويل، وهذا مثل قبولا على نحو ما لمضامين هذه الأمثال أحيانا ورفضاً لها أحيانا أخرى.

وأنهي هذا المشهد بإلقاء نظرة خاطفة إلى الضمير الجمعي الفلسطيني كونه يشكل شاهدا ومؤثرا في مجمل سياقات النسق القيمي الفلسطيني وعناصره المختلفة، والحديث عن الضمير الجمعي الفلسطيني بإطاره العام والذي تغلفه الهوية الوطنية الفلسطينية يأتي في هذه المرحلة لي طرح فكرة المساءلة للهوية كطرح مقاربات بحث عنها، خاصة أن الحديث عن مكونات وعوامل وانعكاسات شتى فعلت فعلها في هذا المكون الجمعي الذي نسميه الهوية، أي رؤية الثابت والمتحول فيها. وأن تحدي الهوية ولد من تحدي نفيها، إذ كان الرهان على تشريد الفلسطينيين من وطنهم ورميهم في المنافي سيؤدي إلى ذوبان الشعب الفلسطيني وضمحلل هويته الوطنية، وسيكون لهم أوطان أخرى ولكن هذه الهوية ممثلة بضميرها الجمعي عادت واستمدت عناصر قوتها من عملية اقتلاع الشعب الفلسطيني من أرضه عام 1948 في عملية تحد لإثبات الوجود والذات الوطنية، بل الشخصية الوطنية الفلسطينية. وارتبط ذلك بالإطار الزمني الذي زخرت فيه الإبداعات الثقافية والفكرية والفنية الفلسطينية في مجالات البحث والدراسات والتخطيط والعلم والفن والأدب من الرواية إلى الشعر والقصة والسينما، وقدمت أسماء تجاوزت عتبة القضية الفلسطينية إلى الإنسانية مثل محمود درويش، وتوفيق زياد، وغسان كنفاني، وناجي العلي، وإميل حبيبي، وغيرهم، وهذه شكّلت بمجموعها قاعدة راسخة في بنيان الضمير الجمعي الفلسطيني، لأنها صاغت روافد الثقافة الوطنية الفلسطينية، ودعمت أركان هويتها وغذتها بشعور التميز أمام الآخرين (مروان عبد العال، 2010).

ويمكن الاستدلال على بنية الضمير الجمعي الفلسطيني في النسق القيمي الفلسطيني من خلال نظرة متفحصة إلى حركة هذا المجتمع ومكوناته الاجتماعية والثقافية عبر العقود العشرة الماضية، والتي أفرزت تحولات تاريخية أثرت في سياقه ورسمت ملامح مستقبله وجعلته يتأرجح بين القوة والوهن والتماسك والتفكك تبعاً للظروف السياسية التي مر بها. ومن اللافت للنظر أن المتتبع لحركة المجتمع الفلسطيني يلاحظ أنه ارتبط في حراكه بإطار جمعي استطاع ان يحافظ عليه امام الهزات التي كادت أن تطيح به. ويرتبط هذا البعد الجمعي بمجموعة من الرؤى التي شكلت مرجعا للمضمون البنيوي للمجتمع الفلسطيني جعلته حكما في حالة تباينه بل توافقه في أحيان كثيرة.

فهذا البعد الثقافي الذي يعبر عن هوية المجتمع وماضيه وحاضره قد شكل جوهر الضمير الجمعي الفلسطيني، فمن خلال سياقاته وتحليل مكوناته سواء في الأدب أم الرواية أم الشعر أم بنية العلاقات التي تشكل عنوانا له، نلاحظ القوة في استدعاء الذاكرة الجمعية في السياق السوسيوثقافي، له فالتهجير، وحق العودة، والقدس، ودير ياسين، وغيرها من الموروث المادي الذي جعل الضمير الجمعي في حالة وعي دائم، وعلى الرغم من أن هذا الضمير قد ارتهن في بعض الأحيان لتيارات اقليمية متباينة أفقدته توازنه فسرعان ما استعاده بسبب منطقية الفعل وقوة عناصره وأهدافه، لأنه ارتبط بمخرجات مصيرية شكلت قاسما مشتركا بين فاعليه.

ونجد دلالات رمزية ثقافية موعلة في النسق القيمي الفلسطيني عبر عنها الضمير الجمعي من خلال الرفض للبعدين الزماني والمكاني الذي أورثتهما النكبة إياه، وهذا ما نستدل عليه في رواية رجال في الشمس لمؤلفها غسان كنفاني، حيث يتمحور معرض هذه الرواية حول بعدين رئيسيين يتمثل الأول في ظل الصمت المهلك لحالة اللاجئين الفلسطينيين في خزان الماء في صحراء لاهية، وهو يعبر تعبيراً موثقاً عن التوتر اليومي والمستحيل الذي يرافق ظروف الحياة والعمل لدى الفلسطيني، ويتمثل البعد الثاني في حال الاعتراض والتنبيه لهذا الصمت (www.meninsun.com) وهو إشارة لوخز الضمير الجمعي للنهوض من سباته نحو حالة أكثر وعياً تثير (ضحيجا مزعجا) يسعى من خلاله إلى بقاءه وإدامة صراعه مع الظرفين الزماني والمكاني الذي وجد فيهما نفسه، وهذا ما نجده في سياق الرواية حينما يفكر أبو الخيزران في إلقاء جثث الموتى في الصحراء، لكنه يتراجع حتى لا تنهشها الضواري ويقرر أن يلقي بها فوق أول مزبلة يقابلها على الحدود ليسهل اكتشاف الجثث ويتم دفنها، وبعد أن يلقي بها فوق أول مزبلة ويسير قليلاً، يعود ليجردهم من الساعات والأموال، وينطلق بسيارته مبتعداً وهو يتساءل بدهشة: لماذا لم تدقوا الخزان...؟! وتردد الصحراء النداء الذي يؤكد سلبيتهم في مواجهة الموت، فهم حتى لم يدقوا جدران الخزان ليتم انقاذهم، حتى لو سجنوا فهذا أهون من الموت.

ونلاحظ حضوراً واضحاً للمشهد الثقافي في النسق القيمي الفلسطيني من خلال رؤية تشخيصية موجزة للتراث الشعبي الفلسطيني، الذي يواجه قرصنة اسرائيلية له من خلال سرقة رموزه، ومكونات هويته من لباس ومأكولات شعبية وأغانٍ تراثية، وذلك في محاولة لإيهام العالم بأن (إسرائيل) جذورا في المنطقة، ولتعويض الهوية المشوهة والضبابية التي يعانيتها القادمون الجدد (الطارئون) في المدن المحتلة عام 1948، فهؤلاء حاولوا سرقة الكوفية الفلسطينية التي تمثل دلالة على البعد الجمعي وضميره المتواصل والمقاوم منذ عشرينيات القرن الماضي للفلسطينيين (www.aklam.net).

وكان للأغنية الفلسطينية نصيبها الوافر في مكونات النسق القيمي الفلسطيني بدلالاتها الثقافية والجمعية، فالميجانا والعتابا وظريف الطول تشكل معاني توظف في الفلسطيني إعادة التوضع في إطاره وحدوده التاريخية والجغرافية. فالأغنية الشعبية التي تشترك الأجيال في إبداع كلماتها وصياغة أيقاعاتها، لتغدو صورة حية لأشكال الحياة وهمومها، تعبر عن مدى ارتباط الوجدان الجماعي برائحة الأرض والتراب المخضب بدماء الشهداء وعرق الفلاحين (يحي جبر، عبير حمد، 2012).

ونلاحظ أن مدلولات النسق القيمي الثقافية تتكامل فيما بينها، فكما الحال في الرواية والأغنية والمثل نستقري الشعر في ثنايا هذا النسق في شعر محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما، الذين يستثيرون نبضه، وحثه على بقاءه في حالة يقظة دائمة، فهذا سميح القاسم يعبر عن حركة الضمير الجمعي وعنفوانه في قصيدته (تقدموا) وهذه الحركة تمثل قيمة ارتبطت بالبعد الجمعي وتحديه في سياق فترة زمنية استطاع فيها أن يُسكّل محوراً تاريخياً مقاوماً قلَّ نظيره في تاريخ المقاومة الفلسطينية، وتمثلت هذه الفترة التي سعد فيها هذا الضمير في سنوات

الانتفاضة التي امتدت من أواخر العقد الثامن من القرن العشرين الى الثالث الأول من العقد التاسع في القرن نفسه.

والقيمة ذاتها تظهر في رائعة محمود درويش التي ظهرت في فترة تاريخية سابقة للانتفاضة الاولى، وكانت قصيدته (عابرون في كلام عابر) محل فزع المؤسسة السياسية الصهيونية بشقيها اليميني واليساري، وتوحد الكنيست الاسرائيلي في مواجهة هذه القصيدة إلى أن وصل الأمر برئيس الوزراء اسحق رابين أن يقرأ مقاطع منها في برلمانها والتي رأى فيها نهاية وجود كيانه فيه. ونلاحظ قيم الامتثال الجمعي في ثنايا هذه القصيدة والتي تُعبر عن صدق تأويله في إنهاء كيانه الطارئ (فراقع، 2008).

ويتألق المشهد الثقافي الفلسطيني في إبراز القيم التأويلية من خلال الإبداعات الفنية التي قدمها ناجي العلي في رسوماته الكاريكاتيرية والتي استقرت الواقع الفلسطيني في حالاته المختلفة والتي تراوحت بين الخنوع والتمرد، ف (حنظلة) يمثل حالة نوعية رسمت ملامح الوطن وشخصه في لوحة ديناميكية دفع على أثرها ناجي العلي حياته.

لذا نرى القيم النبيلة في رسوماته موعلة في الثبات وحب الأرض، فالوطن فلسطين بالنسبة لناجي العلي هي المحور، وهي الذاكرة والمقاتل والأمل، ويعبر محمود درويش تعبيرا ينصب في الضمير الصادق لكل فلسطيني من خلال ما قدمه اذ يقول درويش (لم يكن سهلا أن تناقش ناجي العلي الذي يقول: لا أفهم هذه المناورات، لا أفهم السياسة، لفلسطين طريق واحد وحيد هو البندقية). ([www.art.Wikipedia.org](http://www.art.Wikipedia.org)).

#### خاتمة

يعيش النسق القيمي الفلسطيني تحولا دراماتيكا في بنيته وفي رؤيته نتيجة تقاذف التيارات المختلفة نحوه، وهو يحاول جاهدا أن يحافظ على صيرورته وثباته وارتباطاته المتعلقة بالإنسان والإنسان، والأرض والإنسان، وما تفرزه هذه العلاقات من تناقضات وصراعات تؤثر في سياقها على البعد السيكولوجي الذي كادت أن تطيح به عوامل متعددة وأدخلته في حالة من اللامعيارية لفترات زمنية ليست بالقصيرة. إلا أن قاعدة النسق القيمي الفلسطيني أعادته إلى جادة صوابه، وقد مثل هذه القاعدة جملة من الرؤى ارتبطت بصلافة الضمير الجمعي الذي استنهض الكيانية والأصالة المرتبطة بفلسطين التاريخ والجغرافيا. وهذا ما استقرأناه في سياق المشاهد الثلاثة التي وضحت الدراسة في نصوصها. فالنسق القيمي الفلسطيني بتشكيلاته وعناصره امتازت في جوهرها بالثبات لارتباطاتها العميقة بالدين والفكر والثقافة والأدب والتربية، يجتمع الأفراد حال الاتفاق ومن خلاله يفترق هؤلاء في حالة التباين والاختلاف، وفي الحالين يبقى النسق القيمي هو الموجّه الحقيقي والصادق لسلوك الأفراد والجماعات، ويعد الموروث الثقافي الراسخ في ضمير المجتمع متحكما في منطوق الأفراد ومواقفهم فيها، لأنه يتحكم في عناصر الفعل الاجتماعي وإرهاصاته ونتائجه.

- وبالرغم من ارتباطات النسق القيمي بالضمير الجمعي الفلسطيني إلا أن هناك محاذير قد يتعرض له هذا النسق في المستقبل يمكن إجمالها في السيناريوهات الآتية:
1. انهيار بطيء ومتدرج في مجمل النظم القيمية نتيجة الولاءات العشائرية والحزبية.
  2. ظهور حالة من اللامعيارية في النسق القيمي الفلسطيني نتيجة الانقسام بين جناحي الوطن.
  3. ارتباك في منظومة العلاقات الاجتماعية التي تربط الفرد بالجماعة.
  4. ارتهان النسق القيمي الفلسطيني إلى مجموعة من القواعد والقوانين السلطوية التي تقيدته وتحدد مستويات القبول والرفض في المجتمع وفق رؤى ضيقة تفتقر لمنهج اجتماعي عام متفق عليه.

### References (Arabic & English)

- Barakat, Halim (1985). *Contemporary Arab Society*, Arab Unity Studies Centre.
- Barakat, Halim. (2000). *The Arab Society in the Twentieth Century*, a research on the changing conditions and relations. Arab Unity Studies Centre, Beirut.
- Bitari, Nidal. (2001). *The National Values and the Palestinian Social Reality*, [www.ahewar.org](http://www.ahewar.org).
- al-Jawhari, Muhammad. (1987). *The Science of Folklore, vol.1, a Study on Cultural Anthropology*, Ed.3. Dar al-Ma'arif, Cairo.
- al-Hasan, Ihsan. (1990). *Pioneers in Social Thought, and Analytical Study on Social Thought*. Dar al-Hikma for press and publication, (bmn).
- Husayn, Dunia-L-amal. (2004). *Palestinian Youth and Cultural Volues*, [www.ahewar.org](http://www.ahewar.org).
- Husayn, Suhaylah Mihammad. (2007). *Conflicting and Changing Values in Palestinian Society*, markiz dimasq li-d-dirasat an-nazariyya wa-l-huquq-il-madaniyya. Damascus.



- al-Rawi, Muhammad. (2000). *Encyclopedia of Popular Proverbs in the Arab World*, Dar Usama Lin-nashr wa-t-tawzie, Amman.
- Rochi, G. (1981). *American Sociology. A Study of Talcot Barsonz Works*. Dar al Ma'arif. Cairo.
- Zaher, Diya'. (1984). *Values in the Educational Process*. Mu'assasat al-Khalij al-Arabi (bmn).
- Zayid, Ahmad. (2000). *Social Change*, The Anglo-Egyptian Library, Cairo.
- Atif, Wasfi. (1981). *Culture and Personaltiy*, Dar an-nahda –L-Arabiyya, Beirut.
- Abdul Mu'ti, Abdul-Basit. (1981). *Theoretical Attitudes in Sociology*, The National Council for Culture, Arts and Literatures, Kuwait.
- Othman, Ibrahim. (2010). *Educational Sociology*, al-Quds Open University, Jerusalem.
- Umara, Abdallah Salim. (2012). *Social Values in Palestinian Popular Proverbs*, [www.arab-land.com](http://www.arab-land.com)
- al-Awawdeh, Amal Salem, et al (2000). *A Portrait of woman in Jordanian and Palestinian Popular Literature*, Dar as-Shuruq, Amman, 2000.
- Ayyoush, Diyab. (2008). *An Introduction to Sociology*, Bethlehem bmn.
- al-Kawakibi, Abdur-Rahman. (1975). *The Complete Works*, al-Mu'assasa al-Arabiyya for Studies and Publication, Bierut.
- Muhaisin, Taysir. (2007). *Palestinian Social System, Transformation and Disintegration Controversy Civilized Dialogue*.

- Nasir, Muhammad Abdul-Hasan. (2008). *Rule of the Value Pattern in Civilized Social Life*, Ma'had al-'abhath wa-t-tanmiya, al-hadariyya, (bmn)
- Wakalat as-shabab al-Ikhbariyya. (2012). *Division and it's Impact on the Social Relations Pattern*.